برسى بيش شلى

١٧٩٢ — ١٨٢٢ م .

آراؤه فى الذود عن الشعر

(٢)

اللغة واللون والصورة والحوادث الدينية والمدنية كل هذه مواد وأدوات للشعر، فهى يمكن أن تعتبر شعراً إذا قيست بذلك النوع من الكلام الذى يعتبره الاثر مرادفاً للسبب الباعث . ولكن الشعر حسٌّ أكثر قيوداً يعبر عن حالات اللغة لا سيما المنظومة التى تخلق بواسطة تلك الملكة الجبارة التى يستتر عرشها وراء طبيعة الانسان الخفية . وهذه تنبع من نفس طبيعة اللغة التى هى أقدر على الافصاح بجلاء عن أعمالنا وأهوائنا الداخلية ، والتى تحسّ بالمركّبات الأكثر دقة واختلافاً من اللون والصورة والحركة وألين وأطوع لسلطة تلك القوة المبتكرة لأن اللغة قد نشأت طليقة بواسطة الخيال ولهاصلة بالافكار وحدها ؛ ولكن سائر مواد وأدوات وشروط الفن الأخرى لها صلات بسائر أجزائها التى تدخل بين الشعور والافصاح.

فالأولى كالمرآة التى تشعّ ، والأخرى بمثابة السحاب الحاجب للنور الذى يعتبر كلتا الاثنتين بمثابة وسائل اتصال . لذلك كانت شهرة المثّالين والرسامين والموسيقيين — مع أن القوى الجوهرية لأساتذة هذه الفنون العظام يمكن أن تخضع بدون حد إلى شهرة أولئك الذين يستخدمون لغة هيروغليفية فى الافصاح عن أفكارهم — لن تدنو من شهرة أولئك الشعراء فى أضيق معانى هذه العبارة . وإن شهرة المشرّعين وموجدى الأديان على قدر دوام تعاليمهم تظهر وحدها بأنها تفوق شهرة الشعراء فى أضيق معانيها ولكنها قلما تصلح لأن تكون سؤالاً . لقد أدخلنا كلمة شعر فى حدود هذا الفن الذى هو أكثر اتصالاً وأتم تعبيراً للملكة ذاتها ومع ذلك فمن الضرورى أن نجعل الدائرة أضيق ، وأن نفصل بين اللغة المحدودة والغير المحدودة لأن التقسيم

المعروف إلى نثر ونظم لا ترضاه الفلسفة الدقيقة . والأصوات كالأفكار يتصل كل منهما بالأخرى والاثنتان تتصلان بذلك الذى تمثلانه ؛ والشعور بنظام هذه الصلات يجب أن يرتبط بشعور نظام الصلات للأفكار . لذلك كانت لغة الشعراء تظهر دائماً بلون خاص وصدى موسيقى متوافق للصوت وبدونه لم تكن شعراً بل أقل أثراً من الكلمات نفسها ، ومن هنا كان بطلان الترجمة . فمن الصواب أن تلقى بعفوية فى بوتقة لتكشف عن نظرية تكوين لونها ورائحتها كما تبحث عن نقل آثار شاعر من لغة لأخرى . وإن مراعاة تلك الطريقة النظامية لصدى توافق النغمات فى لغة أصحاب المدارك الشعرية مع صلتها بالموسيقى قد أوجدت وزناً خاصاً للصور التقليدية للنغمات المتوافقة واللغة ، وهى بلا نزاع جوهرية . أنى على الشاعر أن يُدخل فى لغته هذه الصورة المستحدثة حتى يتسنى للنغمات المتآلفة التى هى روحه أن تظهر .

وحقاً إن التجربة عامة ومريحة ويجب أن تقدم لاسيما فى مثل هذا الموضوع الذى يشمل عملاً كثيراً ؛ ولكن يتحتم على كل شاعر عظيم أن يبدع على مثال أسلافه فى تأليفه الأصلى لنظمه الخاص .

والتفريق بين الشعراء والكتّاب غلطة شنيعة ، والتمييز بين الشعراء والفلاسفة سابق ؛ فقد كان أفلاطون شاعراً . فان صدق تصويره وروعته وموسيقى لغته وأكثر الأشياء عمقاً ودقة يمكن أن تظهر فيه . وقد نبذ حدود القصة ولم يرض بالصور التخيلية والغنائية لانه أراد أن يحيي النغمات المتآلفة فى الأفكار عارية من الشكل وعمد الى اختراع طريقة منظمة للوزن يمكن أن تضم تحت صور محكمة خطوات أسلوبه المتنوعة . وقد حاول شيشرون أن يحاكى ألحان زمنه ولكنه لم يوفق كثيراً . وكان اللورد بيكون شاعراً وكان للغته تفعيل عذب رائع يشبع الحسّ ولا يقل عن حكمته السامية فى الفلسفة التى ترضى العقل فهى أسلوب يأخذ فى الانتفاخ حتى يغمر محيط عقل القارىء وينساب معها فى ذلك المنشأ الشاسع الذى يحوى الشعور بالعطف الدائم . وكل موجدى الثورات الفكرية ليسوا شعراء بالضرورة فقط كما انهم مبتكرون وليسوا كما تكشف كلماتهم عن التحليل الحقيقى للأشياء بواسطة الصور التى ترتبط بحياة الحق ولكن لان عهوده كانت متآلفة النغمات ومنظومة وتحمل فى باطنها عناصر الشعر . كانوا صدى للموسيقى الخالدة . وأن أولئك الشعراء العظام الذين استخدموا صوراً حديثة فى الوزن على حسب مقتضيات صورة وعمل مواضيعهم ليسوا أقل

مقدرة على فهم حقيقة الأشياء من أولئك الذين تجاهلوا تلك الصورة ، فشكسبير ودانتى وملتون « إذاعددنا أنفسنا فى زمرة الكتاب الحديثين »فلاسفة من أسمى نوع .

فالقصيدة هى الصورة الحقيقية للحياة مشروحة على حقيقتها الأبدية ، وهذا هو الفرق بين القصة والقصيدة لان القصة قائمة حقائق مفككة لا يجعلها متماسكة إلا الزمان والمكان والظروف والسبب والاثر الناتج ـ أما الأخرى فهى خلق حوادث بالنسبة الى تلك الصور العديمة التغير للطبيعة البشرية كما تحيا فى ذهن الخالق الأعظم والتى هى صورة لسائر العقول الأخرى .

فالأولى متحيزة وترمز فقط الى مقدار محدد من الزمان ، ومجموعة معينة من الحوادث التى لن يتسنى لها أن ترجع ثانياً ، أما الاخرى فهى عالمية وتحوى فى داخلها جرثومة الصلة بكل الدوافع والأعمال التى تتخذ لها موضعاً فى تغيرات الطبيعة البشرية الممكنة .

والزمان الذي يشوّه جمال القصة وقيمتها ذات الحقائق الخاصة والتى نزعت من الشعر الذى يمكنه أن يستثمرها يزيد فى الشعر ويضيف استعمالات جديدة وعجيبة لذلك الحق الخالد الذى يشتمل عليه .

لذلك دعيت المختصرات عنه التاريخ الحقيقى فهى تأتى على ما فيه من الشعر .

فالقصة ذات الحقائق الخاصة مرآة تخفى وتشوّه كل جميل ، والشعر مرآة مجمّل كلّ قبيح .

يمكن أن تكون أجزاء التركيب شعرية دون أن يكون كل التركيب مجتمعاً قصيدة وقد تعد الجملة الواحدة كمجموعة مع أنها قد توجد بين عدة أجزاء غير متجانسة بل قد قد تكون الكلمة بمفردها شرارة لفكر لن يخبو ، وعلى ذلك كان كل المؤرخين العظام هيرودوتس وبلوتارك وليفى شعراء ، ومع أن طريقة هؤلاء لا سيما طريقة ليفى عاقتهم ء . تنمية تلك الملكة فى أسمى درجاتها فقد استعاضوا عنها بملء تلك الفسحات الضيقة فى مواضيعهم بصور حية ، وإذ قد فرغنا من ماهية الشعر والشعراء فدعنا نشرع الآن فى إظهار آثاره فى المجتمع الانسانى .

يقترن الشعر دائما بالسرور فكل الأرواح التى يهبط عليها نهيىء نفسها لقبول الحكمة الممتزجة ببهجته . فى طفولة العالم لم يكن الشعراء أنفسهم ولا المستمعون لهم عارفين تماماً عظمة الشعر لانه يعمل فى طريق سام لا يدركه إلا الوجدان .

وقد حفظ الاجيال التالية لتقدير وتمجيد ... ب الأثر العظيمين فى قوة وجلال وحدتها .

حتى فى الأزمان الحديثة لم يصل شاعر إلى تمام شهرته : فاحنة المحلفين التى تجتمع لتقضى على الشاعر الذى ينتسب لجميع العصور يجب أن تشكل من أقرانه ويجب ألا تتقيد لزمان عند اختيار نخبة من عقلاء عدة عصور .

الشاعر كالبلبل الذى يجلس فى الظلام ويصدح ليبدد وحشة وحدته بأنغامه الشجية ؛ والصاغون إليه كأولئك الذين سُحروا بنغم موسيقار متوافق فيحسون بأنهم اهتزوا وطربوا ولكنهم لايدرون متى ولماذا .

فقصائد هوميروس ومعاصريه كانت بهجة الإغريق الأولين إذ كانت العناصر الأولية لذلك النظام الاجتماعى الذى هو بمثابة العمود الفقرى الذى ارتكزت عليه سائر المدنيات المتتالية . فقد صور هوميروس المثل الأعلى لعصره فى صور انسانية ولن نرتاب فى أن أولئك الذين يقرءون أشعاره تستيقظ فيهم غريزة الطمع بأن يصبحوا مثل آخيل وهكتور ويوليبس بولبسيس خلق وجمال الصداقة والوطنية ودوام التعبد كل هذه كشف عنها فى هذه الآثار الخالدة . وأحاسيس المنصتين يجب أن تنتقى وتعظم بالانعطاف نحو هذه التشخيصات المحببة المعظمة حتى أنهم لفرط اعجابهم حاكوها ولأنهم حاكوها وقفوا أنفسهم على أغراض إعجابهم .

ولا يجوز الاعتراض بأن هذه التشخيصات أقدم من درجة الكمال الأخلاقى ، وبأنه يمكنها بلا واسطة أن تعتبر أسماً قويمة للمحاكاة . فكل عصر قد أكبر من غلطاته الشنيعة تحت ستار أسماء متفاوتة فى الظهور قلة وكثرة . فالانتقام هو المعبود العارى لذلك العصر النصف الهمجى ، والغرور هو الصورة التى تكسو الشر المخبوء الذى يسجد أمامه الترف والشبع . ولكن الشاعر ينظر إلى نقائص معاصريه كأنها ثوب مستعار مزين بآياته والذى يستر دون أن يخفى تقاسيم جمالهم الخالدة وجمال الطبيعة الداخلية لم يعد يخفيه منظرها الخارجى ولكن روحها تتصل بالصورة الخفية جداً وتنم عن الشكل الذى يخفيها بالحالة التى تلبسها ، فالشكل الرائع والحركات الرشيقة تكشف عن نفسها حتى فى ثوب الهمجى الذى لا ذوق له .

وقليل هم الشعراء الممتازون الذين أفصحوا عن جمال تصوراتهم فى صدق وجلال بارزين . وكل ما يعترض على مناقاة الشعر للآداب يقع فى سوء فهم السبيل الذى

يتخذه الشعر فى إبراز الاصلاح الأخلاقى للانسان . فالعلم الأخلاقى يقوم بترتيب العناصر التى يأتى بها الشعر ويعرض تدابير وأمثلة الحياة العائلية . وليس من التعاليم المحبوبة أن يضمر الناس الكراهية والاحتقار والضرر والايقاع والفتك بعضهم لبعض . ولكن الشعر يعمل فى طريق آخر أسمى فهو يوقظ ويوسع العقل بأن يجعله حاوياً لروابط كثيرة للفكر غير مدركة ، فهو يرفع الستار عن جمال العالم الخفى ويجعل الأشياء العادية كأنها أشياء غريبة عنا وان أعظم أسرار الأخلاق هو الحب أو الخروج على طبيعتنا وربط نفوسنا بالجمال الذى يوجد فى الفكرة والعمل أو الشخص ولا نملكه . ولكى يكون الانسان على جانب عظيم من الصلاح ينبغى له أن يفهم جيداً أنه يجب عليه أن يضع نفسه مكان شخص آخر بل أشخاص كثيرين غيره فتصبح آلام ولذات غيره آلامه ولذاته الخاصة . وأحسن وسيلة لصالح الأخلاق هى الخيال ، والشعر يعطى هذه الوسيلة بتأثيره فى الباعث ؛ فهو يوسع دائرة الخيال باشباعه بأفكار غاية فى جدة السرور ولها سلطان جذب وملاءمة سائر الأفكار الأخرى لطبيعتها الخاصة والتى تخلق فترات جديدة وفسحات ضيقة يتوق فضاؤها دائماً إلى طعام شهى .

والشعر يقوى تلك الملكة التى هى بمثابة عضو الطبيعة الأخلاقية فى الانسان كما يقوى العضو بالمران . لذلك قد يخطىء الشاعر فى إدخال شعوره الخاص بالصالح والردىء — اللذين هما من عمل زمانه ومكانه وموطنه عادة — فى نتاجه الشعرى الذى لا يتصل بأحد منهما .

فأولئك الذين ملكتهم الشعرية عظيمة إلا أنها أقل حدة كأوربيد ولوكان وتاسو وسبنسر قد تناولوا غرضاً أخلاقياً . وأشعارهم قد ضعف بالنسبة إلى الدرجة التى يضطروننا فيها الى أن نتيقظ الى غرضهم هذا .

وقد خلف هوميروس ومن عاصره من الشعراء فى فترة معينة الشعراء المسرحيون والشعراء الغنائيون فى أثينا الذين ازدهروا فى عصر بلغ ذروة الاتقان فى الافصاح عن جميع أنواع الملكات الشعرية من بناء وتصوير وموسيقى ورقص وفلسفة . ويمكننا أن نضيف اليها فنون المعيشة المنزلية . ومع أن خطة الجمعية الاثينية قد شابها كثير من النقائص التى قضى عليها شعر الغروسية والمسيحية من عادات ونظم أوروبا الحديثة إلا أنه لم يأت عصر كان فيه النشاط والجمال والفضيلة أكثر ظهوراً منه ولم تكن القوة الغشوم تخضع لارادة الانسان أو الى تلك الإرادة الأقل كراهية لمستلزمات الجمال

والحق كما كانت فى القرن الذى سبق موت سقراط . وليس لدينا عصر فى تاريخ البشرية غنى بالوثائق والمقتطفات وعليه طابع ألوهية الانسان . ولكن هو الشعر وحده فى صورته وفى بحثه وفى لغته الذى رفع هذا العصر على سائر العصور الأخرى ، فهو مستودع عبر لعصر خالد. وقد عاش الشعر فى ذلك العصر بجانب الفنون الاخرى وانه لبحث عقيم أن نسأل عن أيها كان مرسلاً النور وأيها كان مستقبله ، فكلها كانت بمثابة نقطة الاحتراق التى أزاحت غياهب ظلمات العصور التالية . وقد كان فى ذلك العصر الذى أشرنا اليه أن وجدت الدرامة ومهما كان من محاولة كتاب العصور التالية أن يأتوا بمثل هذه الدرامات الاثينية التى وصلت الينا فانه من المسلّم به أن الفن نفسه لم يفهم أو يطبق على حسب فلسفته الحقيقية كما فهم وطبق فى أثينا لان الاثينيين استخدموا اللغة والحركة والموسيقى والتصوير والرقص والتعاليم الدينية ليوجدوا أثراً عاماً فى الافصاح عن مُثلهم العليا فى العاطفة والقوة . وكل فرع من فروع الفن قد نال نصيبه من الجودة والاتقان بواسطة فنانين ذوى مهارة فائقة ورتب ترتيباً منسقاً جميلاً الواحد نحو الآخر .

أما فى المسرح الحديث فقليل من العناصر الزعيمة بالافصاح عن شعور الشاعر يمكن أن تؤدى مرة واحدة : فعندنا مأساة خالية من الموسيقى والرقص ، وموسيقى ورقص مجردان من أسمى التشخيصات اللازمة لها ، وكلا الاثنين قد خلا من التدين والوقار ، فقد أبعدت التعاليم الدينية عن المسرح تماماً وإن نظام تجريد وجه الممثل من النقاب الذى ينبغى أن يفرغ فيه كثير من الملامح التى تلزم للنوع التخيلى إلى هيأة واحدة ثابتة لاتتغير قد يناسب فقط الأثر الجزئى الغير المتزن فهو لا يصلح لشىء إلا للمنلوج حيث يكون كل الانتباه موجهاً إلى أستاذ عظيم فى التقليد الهزلى .

نظمى لبيب

جون كيتس

(١)

لا يسع المولعون بالأدب الانجليزى ، وبأدب القرن التاسع عشر على وجه الخصوص سوى الاعجاب بهذه الشخصية النادرة الفذة ، شخصية الشاعر كيتس ، لا لأنه شاعر بارع مجدد فى الشعر الانجليزى فى عصره حسب ، ولكن لكونه نبغ وكتب آثاره الخالدة على العصور وهو فى فجر الشباب ، ومات بعد أن ترك دويا لا يزول إلا

بزوال الدنيا ، وكتب اسمه فى الخالدين ولمّا ينعم بالشباب التنعم الكافى ... وأذكر فى هذه المناسبة أننى قرأت عن كيتس أن موته المبكر كان خسارة على الأدب ، ونكبة للشعر السامى ، إذ حُرم الناس عبقرية فذة متوقدة ربما كانت تنتج للناس العجب لو بُسِطَ لها العمر ، أما أنا فأعتقد على النقيض من ذلك أن موت الشاعر فى بكرة الشباب كان قصيدته الخالدة التى لا يجحدها جاحد . . ! واعتقدت الى جانب ذلك أن عبقرية هذا الفتى الشاعر انما جاءت فى ومض الصبى ورونق الشباب الأول ، ولم تشأ أن تبقى بعد ذلك الجمال فتبتذل وتهان ، لذلك مضت إلى ربها آمنة مطمئنة ، تسبح فى مقرها السماوى ، وتغرد حرة طليقة قوية . . . وشاعر ككيتس ، خلق للغناء والنشاط المستمر والترنم بالشباب والجمال والحرية لا يكون شاعراً — فى رأيى — اذا عاش أكثر من عمر الزهر والورد . . . فأنا اليوم إن كنت أغبط شاعرنا كيتس على شىء ، فانما أغبطه لكونه مات هذه الميتة المبكرة التى كانت من أقوى أسباب خلوده واستقرار أدبه .

والآن ، ونحن نحب الوصول إلى شخصية الشاعر الذاتية ، لا نجد هنالك ما نعتمد اليه ونركن اليهم إلا الترجمة التى كتبها الشاعر عن نفسه دون أن يدرى ماذا كان يسجل ، ويمكننا العثور على هذه الترجمة واضحة صادقة فى خطاباته التى فحصها ومحصها اللورد هوجتون ، ثم أضاف اليها التعليقات التى بلغته من (تشارلس آرميتاج براون) وأخرجها للناس فى كتاب أسماه « حياة كيتس ورسائله الأدبية » على جزئين ، وطبعه موكسون فى عام ١٨٤٨ ، ولا يزال عشاق أدب الشاعر يتلون هذا الكتاب النفيس إلى اليوم .

وكثر المعجبون بالشاعر وذهب القوم يفتشون عن آثاره ، وكان من نتائج ذلك الظمأ العجيب إلى شعره أن طبعت رسائله على حدة ، وأضيفت اليها تعليقات من قلم اللورد هوجتون ، ومن ثم كثرت كتابة التراجم للشاعر وأصبحت منزلته فى الشعر الانجليزى وعند قراء الأدب العالمىّ إطلاقاً منزلة رفيعة محمودة .

من رأينا فى كتابة التراجم لأى أديب أو شاعر أن نمزج حوادث حياته التى تفاعلت مع أدبه بآثاره التى أخرجها للناس ليرى الناس أننا لم نكن مجرد قصاصين لتاريخ حياة مفروغ منه ولا طائل من ورائه ، لذلك نحاول فى هذه المحاضرة أن نقص تاريخ كيتس على هذا النمط الجديد مؤملين أن ينال منكم الرضى والقبول .

كان شاعرنا (جون كيتس) الابنَ الاكبر لتوماس كيتس وزوجته فرانسيس جينجز ، وكان لها سواه من الأولاد أربعة . ولد جون فى ٣١ أكتوبر من عام ١٧٩٥ فى اسطبلات (سوان وهوب ليفرى) بفينسبرى ، وكان يدير هذه الاسطبلات جد كيتس لأمه ، جون جينجز ، الذى استخدم لديه توماس كيتس والد الشاعر ، وقد كان شاباً هاجر من غرب البلاد مجهول النسب ، منهم الأصل . ويقال انه كان دون العشرين حينما هبط (سوان وهوب) ، ثم تزوج من إبنة سيده فى عنفوان رجولته ، وألقيت اليه مقاليد الادارة ، وراح مستر جينجز ينفق آخريات أيامه فى هدوء وراحة ودعة .

وفى ٢٨ فبراير من عام ١٧٩٧ ميلادية وُلد جورج الشقيق الاول لشاعرنا ، وفى ١٨ نوفبر من عام ١٧٩٩ ولد أخوه توماس . وفى ٢٨ ابريل عام ١٨٠١ ولد الطفل الرابع وسمى إدوارد ، بيد انه قضى نحبه فى براءة الطفولة الاولى . وفى ٣ نوفبر من عام ١٨٠٣ خرجت إلى الوجود طفلة عمّدوها باسم (فرانسيس مارى) وفى تلك الاثناء انتقلت الاسرة من (سوان وهوب) إلى بيت بشارع جرافين خارج طريق المدينة ، ونكبت الاسرة فى السنة التالية لهذا الانتقال بكارثة عنيفة ، ذلك أنه حدث فى ١٥ ابريل أن توجّه توماس كيتس عميد الاسرة لتناول الغداء فى (سوث جيت) وفى ساعة متأخرة جداً ركب قاصداً منزله ، فسقط بهجواده أثناء السير فى طريق المدينة ، فكان أن تحطمت جمجمته وعثر به الحارس حوالى الساعة الواحدة صباحاً وكان لايزال على قيد الحياة ، بيد انه لم يكن يقوى على الكلام ، فحمله مع رجال آخرين إلى بيت قريب حيث لبى نداء ربه فى الثامنة من صباح ١٦ ابريل عام١٨٠٤

ومضى عام على وفاة الوالد المروعة ، ثم تزوجت الأرملة من مستر (وليم رولنجز) الذى خلف زوجها فى إدارة الاسطبلات . ولما كان من المستحيل أن تقوم بين الزوجين الجديدين سعادة تبعثها المحبة المتبادلة ، فقد افترقا سريعاً .

كان مستر توماس كيتس يأمل أن يرسل أطفاله إلى مدرسة هارُو لينالوا قسطهم من التربية والتثقيف القويمين ، ولكنه كان يدرى أن مدرسة هارُو ستكلفه ما لا طاقة له به على الإطلاق ، لذلك رأى أن يعتدل فى تفكيره ، وأن يتواضع فى أمانيه، فبعث بجون قبيل الوفاة إلى مدرسة سبق أن تعلم بها أقاربه من اسرة جننجز وكان يديرها رجل يدعى مستر جون كلارك من بلدة إينفيلد .

وكان توماس كولده جون يستطيع أن يجذب الناس الى شخصيته القوية ، وكذلك كانت فرانسيس جينتجز فى صباها ذات ملاحة ورشاقة وذكاء ... ومن روائع القصص التى تحكى عن طفولة الشاعر القصة الآتية : كانت الأم مريضة ، ونصحها الطبيب فيما نصح بالهدوء والراحة التامة ، فنصب الطفل جون نفسه حارساً لها مدة المرض ، ووقف لدى الباب شاهراً سيفاً قديماً يرهب به القوم حتى لا يحاول أحد دخول المخدع فيقلق راحتها . ويقول عنه الصديق هيدن فى ترجمته : « لقد كان فى طفولته طفلاً شريراً ، لا يخضع لرأى ولا يهدأ لفكرة . ولقد كان فى الخامسة من عمره تقريباً حينما أمسك سيفاً عتيقاً مهملاً ، وأغلق الباب وأقسم لا يخرج أحد من الغرفة ولكن الأم كانت بحاجة الى مبارحتها ، الا أن صاحبنا هددها تهديداً فظيعاً حتى أنها لم تمالك نفسها عن الصراخ والصياح فلم يرق قلب الطفل القاسى ، ويسمح لها بالخروج الا حينما حضر بعض الناس ، وكان قد بصر بالمرأة من النافذة فى حالتها المحرجة ، ورجاه فى ذلك ! » .وهنالك قصة أخرى يحمد هيدن على ايرادها ، وهو فى الواقع الشخص الثقة الذى يصدق فى التحدث الينا عن طفولة الشاعر . يقول هيدن :

«سألت سيدة مكتهلة ،تدعى مسز جرافتى من فيتزبرى ، جورج شقيق الشاعر عما ينوى صاحبنا أن يعمله ، فأجابها : انه يرجو أن يصبح شاعراً ، فقهقهت قائلة : ان هذا أمر غريب .. !! » ثم يعلق هيدن على ذلك من عنده قائلا : والواقع أن طفلنا كان كلما سأله سائل عن أى شىء ، يحاول أن يجعل اجابته منغومة فى المقطع الأخير .

وليس أمامى الآن أحسن من هذه القطعة الفنية الخالدة التى رسمها كيتس بريشته القادرة المهذبة مصوراً طفولته ، وبها يمكننا أن نستعين قليلاً على تفهم طفولة الشاعر ، الذى كان مولعاً بخوض الجداول وحمل السمك الى البيت . يقول الشاعر كيتس واصفاً الطفل كيتس فى هذه النفحة البديعة من خطاب بعث به الى شقيقته: « كان يعيش ولد خبيث ، ولد خبيث ماكر حقاً ، يعنى بجمع الاسماك الصغيرة فى أنابيب ثلاث . وكان رغم قسوة الخادمة وشراستها ، ورغم انتباه الجدة الصالحة ، يبكر غالباً فى الاستيقاظ ، ويذهب الى الجدول وبيده صنارته ، ويؤوب الى المنزل ومعه الاسماك الصغيرة التى لا يكاد يزيد حجمها عن خنصر طفل صغير . . . »

أرى من الصعب على نفسى وأنا أتلو هذه القطعة الساذجة أن أهمل التعليق عليها، فالشاعر يعنى جدولاً بذاته ، ويتحدث عنه فى عام ١٨١٧ ، مستوحياً ذكريات

الصبي السحيقة ، ولقد جعلته نفس هذه الذكريات العذاب يكتب في صدر (أنديميون) معترفاً إلى شقيقته (بيونا) برؤيته وجه ديانا يطل عليه من سماء البراءة فيقول شاعرنا متحدثاً عن تلك الطفولة المرحة الحلوة : « وكنت غالباً ما أستعيد في ذاكرتي أيام الطفولة حيث كنت أصنع السفن من الريش الملون والعيدان والأوراق المتساقطة ويكون (نيبتون) إله البحر حامي محيطي الضحل » .

انّ ما يمكنني أن أقوله حيال ذلك الايحاء الجميل هو أن الشاعر لا يستخدم خياله الخصب وحده ولكنه يستخدم إلى حد بعيد ذكرياته السحيقة المختزنة في عقله الباطن ، تلك الذكريات التي كان ميدانها إنفيلد وإدمونتون — أي ما بين منزل جدته لأمه في إدمنتون وبين مدرسة مستر كلارك في إنفيلد . ويخبرنا مستر شارلس كلارك أن كيتس ابتدأ حياته الثقافية وأنهاها في تلك المدرسة . . . ثم يضيف قوله : « لقد كان كيتس طفلاً من الاطفال الصغار الذين لم يخلصوا بعد من ملابسهم الصبيانية ، حينما قدم المدرسة ليكون تحت رعاية أبي . . . بل وربما كان أصغر طفل في مجموعة تتراوح بين السبعين والثمانين صبياً . . » ثم يقول مستر كلارك : « لقد كان جذّاب الوجه ، محبوباً ، معروفاً لدى الجميع ، حتى ان أمي كانت تحبه . » ويتحدث كلارك هذا عن والد كيتس قائلاً : « رجل يمتاز برقته وحسن فهمه ، واحترامه لشخصيته ، وكان طفله جون نسخة أخرى منه في ملامحه وشخصه ، ذا عينين سوداوين جميلتين ، وشعر أشقر بديع ، أما الشقيقان الآخران فكانا إلى ملامح الأم جدّ قريبين ، طويلي القامة ، رقيقي الملامح ، بيضاوي الوجه . . . »

ويحدثنا كلارك أن جون في مستهل حياته الثقافية ، كان فتى عادياً ، فلم تبدُ عليه مخايل النبوغ أو الذكاء المفرط ، ولكن الذي يؤثر عنه فيما بعد هو أنه صار يسبغ على كافة الموضوعات التي كان يعالجها روحاً قوية كثافة جبارة . . يقول كلارك : « لقد كان تلميذاً مجدّاً منتظم الأمور » ثم يضيف إلى ذلك قوله « كان من عادة أبي ، في عطلة كل نصف سنة ، أن يتقدم إلى الطلاب الذين يقومون بنصيب كبير من العمل الاختياري بجوائز كثيرة . ولقد كان كيتس واحداً من الذين حصلوا على الجائزة الأولى مرتين في السنتين الأخيرتين اللتين قضاهما بالمدرسة. كان يتوجه للعمل قبل أن يدق الناقوس الاول (التنبيه) ، وكان ذلك في الساعة السابعة صباحاً عادة ، وكان غالباً ما ينفق أوقات الفراغ على هذا المنوال ، ففي الوقت

الذى يلهو زملاؤه ويلعبون كان يُرَى غائباً بالمدرسة .. منفرداً ـ يعالج ترجمة موضوع عن الفرنسية أو اللاتينية ، وهكذا لم يكن يدرى شاعرنا الخطر الذى كان يعرض له نفسه ، بإجهاده عقله وجسمه : فى حينما يحب الترويح عن النفس والتخفيف عنها بالرياضة ... بل ويقال إنه لم يكن يقبل على الرياضة ، بل كان يزاولها مضطراً مدفوعاً من أحد أساتذته ... !

ذكرتُ انه كان محبوباً من الجميع : أجل كان ذلك لروحه السامية ، وأخلاقه الرضية ؛ بيد أنه حينما يهتاج كنت تظفر معه بمواقف يعجز أعظم الممثلين اتقاناً لفنهم عن الاضطلاع بها ؛ ولقد كان كثير الشبه بالممثل الفنان إدموند كين فى صورته وعواطفه المتأججة . بصرت به مرة وقد اشتبك مع مساعد أحد الاساتذة فى معركة حامية سببها أن ذلك المساعد لطم أخاه توم لطمة قوية على أذنه . ولقد كان فى مقدور الرجل أن يحمل جون ويضعه فى جيبه ولكن جون عرف كيف يجرحه ويضربه . كان من الصعب عليه فى بعض الاحايين كبح شعوره وكبت عواطفه ، ولقد كان أخوه جورج يسخر منه حينما يحاول ضربه ، وقد كان جورج طويل القامة قوىّ البنية ، وكان جون يهتاج وتصيبه آخر الأمر نوبة عصبية عنيفة ... أما هذا الغضب الحار ، فقد كان سحابة صيف : فجون محبوب من أشقائه محبٌّ لهم ، ولقد دلل فى فرص كثيرة على ذلك وكان محبوباً كذلك لأنفته وشممه وإبائه وكرمه ، حتى اننى لا أكاد أذكر كلمة سيئة وجهها اليه أحد ممن تعرفوا اليه ، سواء فى ذلك أصدقاء فرقته أو غيرهم ممن تقدموه .. »

ويقول ادوارد هولمز ، وهو أحد زملاء الشاعر فى المدرسة ، فى الفصل الذى كتبه عنه فى الكتاب الذى جمعه اللورد هوجتون ، ولا ننسى أن هولمز هذا هو الذى عمر حتى كتب حياة موزارت :—

« ماكان كيتس متعلقاً بالقراءة فى صغره ؛ وإنما كان مغرماً بالمشاجرة ، ولوعاً بالعراك ، حتى لقد كنت أحسبه على أهبة دائمة للعراك مع الناس قاطبة فى الصباح وفى الظهيرة وفى المساء . تى السواء غير مستثنٍ من ذلك أخاه ! لقد كان العراك طعامه .. ولقد كان يحسب الناظر اليه أن صاحب هذا الوجه الحالم الجميل لابد وأن يصبح عظيماً يوماً ما فى الجيش مثلا ..! وأما فى الادب فلا ..! وسيلاحظ قراء هذا الفصل أن هذه الحالة ـ حالة اتجاهه الى الآداب ـ جاءت فجأة دون إعداد ... كان

متفوقاً على الدوام على أقرانه ؟ أما وقع جماله المفرط على روحي منذ اللحظة الاولى التي أبصرته فيها ، فلست أستطيع وصفه على حقيقته — فهذا النزوع الى العراك والشجار وهذه الأخلاق النبيلة ، وهذه العواطف الرقيقة الشريفة التي تأسرها دمعة مُرَاقة ، وهذا القلب الطيب الصافي من الأوشاب ، الذي يطرب لكل ضحكة مجلجلة — طرباً قوياً — كل هذه الصور تساعدنا في رسم الشاعر كيتس إبان طفولته ، ثم نضيف اليها جمال وجهه المتناهي وأخلاقه النادرة الآسرة ، وعندها نرى أنه خليق بمكانته السامية من نفوس زملائه .

فاذا سمعنا هذا القول من هولمز أحد زملائه في الطب ، عدنا الى كلارك نجل صاحب المدرسة ، نستمع الى حديثه عن كيتس في آخر عهده بالمدرسة ، أثناء السنة والنصف الأخيرة . يقول كلارك إن كيتس كان يقطع ساعات تناول الغداء بالمطالعة ، ووصفه بأنه كان عظيم الذكاء جبار الذاكرة ، وانه قرأ قراءة مدهشة واسعة . يقول كلارك : « الذي يمكنني أن أذكره الآن أنه ما من شك في أنه التهم كل ما وعته المكتبة من الكتب والمخطوطات التي كانت تتكون من خلاصات الرحلات والسياحات مثل مجموعة هافور والتاريخ العام وكتب تاريخ روبرتسون عن اسكتلندة وأميركا ، وشارلز الخامس ، وكل مؤلفات مس إدجورث ، مضافاً الى كل ذلك أعمال أخري قيمة ، تفيد في تثقيف الشبيبة . أما الكتب التي كان يركن اليها كثيراً فقد كانت « البانتيون » لتوك والقاموس القديم للمعبر الذي كان يحفظه عن ظهر قلب تقريبا والبولمتس لسميز ، ومن هنا كان ابتداء صداقته للميثولوجيا الاغريقية . ولقد أغرم بالإ نيادة غراماً عظيماً حتى انه ترجم منها جانباً كبيراً قبل أن يغادر المدرسة » . ويقول كلارك : « مع هذا فانني أذكر أنه عرض علي قبل أن يتم الرابعة عشرة من عمره آراء له في الانيد وذكر له جملة عيوب في القصيد دهشت منه كثيراً حينما سمعتها . ولقد كان لتاريخ بيرنت والاكسامتير لليت هنت الفضل الأعظم في توجيه كيتس التوجيه الصحيح في نشدان الحرية المدنية والدينية في شعره . وفي أثناء أيامه الأخيرة بالمدرسة ساءت صحة والدته . ولقد عانت المسكينة الأمرين من روماتزم حاد أصابها في عرض حياتها ، فلما دهاها المقدار بالتدرن الرئوي لم يمهلها كثيراً بل قضى عليها وشيكاً . أما كيتس فقد فنى في خدمتها أثناء المرض المرهق المضني ، فكان يقوم الليل بتمامه بقرب فراشها ، يجهز لها الدواء ، ويقدم لها الغذاء ، ويتلو عليها القصص قصد تسليتها والتخفيف عنها . وعند ما حضرتها المنية تدفق حزنه وانهمرت لوعته وتخاذلت قواه ، حتى لقد كان يستأهل الرحمة والشفقة ممن كان يقع بصرهم عليه ... »

مختار الوكيل